

كتاب مصطفى كامل

للأستاذ عباس محمود العقاد

—

الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك جدير أن يسمى بمحور مؤرخ النهضة القومية الحديثة ، لأنه أرخها في مرحلتها التي بدأت بالحلة الفرنسية ، وأرخها في مرحلتها التالية التي بدأت بقيام محمد علي الكبير على الأريكة المصرية ، وصحبها فيما أعقب ذلك من الراحل إلى عهد الثورة العربية فالاحتلال البريطاني والحركة الوطنية في عهد هذا الاحتلال

وها هو ذا قد تأدى في تاريخه لها إلى ختام القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، أي إلى الفترة التي ظهر فيها زعيم الوطنية في أبناء ذلك الجيل مصطفى كامل باشا رحمه الله

ونهج الأستاذ الكبير في كتابه عن مصطفى كامل شبيه بهجه في الكتب المتقدمة من حيث الطريقة والوجهة ، يتبع الوقائع ويستقصى ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب ، وسهولة في التعليل والتعليل لا تقبل على ذهن القارئ ولا تكفي مع ذلك بالظواهر دون ما يلزمها من الأسباب والعواقب

إلا أنه في كتابه عن مصطفى كامل قد اقترب من ميدان الحياة الحاضرة أو من معترك السياسة الذي يمش فيه ، فكان لذلك أثره في الميزان دون قصد في بعض الأحيان ، وعلى قصد ظاهر في بعض الأحيان

ولتوضيح ما نقول نرجع إلى الحركة الوطنية ومذاهبها المختلفين بعد احتلال الإنجليز لهذه البلاد

فقد كانت الدعوة الوطنية كما قلنا في كتابنا عن سعد زغلول « شيعاً مختلفات في المقصد والنتيجة المأمولة ، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية ، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول التي كانت تتأوى » انجذرتا في مطالعها الشرقية ، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاً الثورة العربية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال . فقد

١٢٠ ٢٢

رأى رجال هذا الفريق ما هو حسبهم وزيادة في هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة ، فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد المهد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميعة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال ، وتزويد الأمة بمدة العلم واليقظة والثابرة ، لأنه ما من وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أجمع من وسيلة فهمه والاستعداد له والإصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول

هذان هما المذهبان اللذان شاعا من مذاهب الحركة الوطنية بعد الاحتلال : مذهب مصر للمصريين ، ومذهب الاعتصام بالسيادة العثمانية ، إما لأنها دولة الخلافة ، أو لأن السيادة العثمانية « حجة شرعية » لمحاربة الغاصب وإظهار مركزه « غير المشروع » ولا يخفى أن مصطفى كامل رحمه الله كان من أنصار السيادة العثمانية ، وكان يذكر الاستقلال ولا يذكر الاستقلال التام ، وكان يقيم المحافل كل عام في عيد جلوس « المتبوع الأعظم » عبد الحميد سلطان آل عثمان ليؤكد ولاء المصريين للسيادة العثمانية . وقد أنشأ الحزب الوطني فكان المبدأ الأول من مبادئه « استقلال مصر كما قرره معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ذلك الاستقلال الذي يضمن عرش مصر لعائلة محمد علي مع الاستقلال الداخلي عن تركيا »

وكان المبدأ العاشر من مبادئه « تقوية العلاقات بين مصر والدولة العلية »

ولبت أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي حتى كتب اللواء يعيب على الأستاذ الكبير « أحمد لطفي السيد بك » أنه يطالب بالاستقلال التام ويخرج بذلك على أحكام القانون وعلى سنة الولاة للسيادة العثمانية ، فاضطر الأستاذ يومئذ إلى التفرقة بين الاستقلال التام والاستقلال الكامل توفيقاً بين ما يدعو إليه وبين الصيغة الشرعية

ثم لبت أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي إلى ما بعد الحرب العظمى وبعد الثورة الوطنية التي أعقبها ، فحولوا الأمر إلى أصحاب السيادة في الآستانة ثم في أنقرة ، كأنهم هم الأصلاء وليس للمصريين أن يرموا أمراً في هذه السيادة إلا بعد إيزام الأصلاء رأيهم في موضع الخلاف

عمل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية ... »

تبين أن انسحاب سعد زغلول من رئاسة الجامعة كان تحقيقاً
لرغبة الاحتلال ... يا عجبا ! كيف تبين ذلك ؟ ومن أين جاء
ذلك البيان ؟

أما الحقيقة فهي أن الحكومة تبرعت للجامعة بالمال واعترفت
بشهاداتها كما تعرف بشهادات المدارس الأميرية . وسألنا سعداً
في ذلك فقال في بيان نشرناه في كتابنا عنه : « ... كل هذا
والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون
أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء
القطر المصري بأجمعه ، وليس هذا كله كل ما أمدت به الحكومة
هذه الجامعة فإن اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين
بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الإقبال عليها إقبالاً
لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع
العقل ، وربما لا تنسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة
إعانة المشروع مادياً ، فرفضهم الآن إثر افها عليه بعد أن أدت
الحكومة ما طلبوه منها بعد من الغرابة بمكان »

هكذا كان موقف سعد من الجامعة وهو وزير ، وإنه لأصوب
ألف مرة من موقف الداعين يومذاك إلى إحباطها وتشكيك الناس
في مصيرها . أما إنشاء « الكتاتيب » واعتباره حرباً للجامعات
والمدارس العليا فقد عشنا بحمد الله حتى رأينا الدستور المصري
يفرض التعليم الإلزامي فرضاً ويجعله واجباً من الواجبات الوطنية ،
وعشنا بحمد الله حتى علمنا أن سعداً قد سبق النهضة القومية سنوات
إلى ذلك العمل المجيد الذي كان محسوباً يومذاك من الجنائيات

ومن السهل على الإنسان أن ينقد سعداً حين يعارض الهجوم
على تقرير التدريس باللغة العربية في جميع المدارس المصرية قبل
إعداد الكتب وإعداد المدرسين والنظر في عواقب هذا التبديل ؛
ولكن من السهل أيضاً أن يعلم الإنسان أن المستطاع هو المستطاع
وأن سعداً قد عمل في سبيل اللغة العربية والتمهيد لتدريسها جهد
ما يعمل وزير في تلك الأيام ، وأن مدرسة مصطفى كامل نفسها
لم تكن تستغني بالمدرسين المصريين عن المدرسين الإنجليز ، اعتماداً

وقد تماقت الحوادث وتمخضت الآراء فظهر بعد حين موقع
الصواب من المذهبين ، وضعت حجة السيادة العثمانية شيئاً فشيئاً
حتى أصبح الجليل الحاضر يعجب كل العجب كيف كان هذا الرأي
في يوم من الأيام موضع خلاف !!

وقد كان الإنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه الحقيقة في تاريخ
مصطفى كامل ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعداء المعتصمين بالسيادة
العثمانية في ذلك الحين ، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعداء
وأن يذكر معها صواب المخالفين ولا سيما حين يشعر أنه صواب
ولكننا بحثنا في كتاب مصطفى كامل فلم نر فيه إشارة إلى
هذا أو ذاك ، وكأنما غلبت النزعة الحزبية على النصفة التاريخية
فوجدنا أن الأستاذ الكبير قد أغفل الموضوع كل الإغفال ،
فلم يذكر محافل التبوع الأعظم ولم يذكر حملة اللواء على طلاب
الدستور والحرية في البلاد العثمانية ، وكتب أكثر من عشر
صفحات عن تأسيس الحزب الوطني مفصلاً أسماء أعضائه وأقوال
الصحف فيه دون أن ينشر مبادئه أو يأتي بالمهم منها وهي أهم
ما يثبت المؤرخ في سيرة زعيم حزب من الأحزاب

ولو أنه فعل هذا لأقر الحقائق في نصابها وأتاح للقارى
أن يحيط بمعاني الحركة الوطنية من جميع نواحيها ، وأن يستخرج
العبرة المقصودة بالتاريخ من صواب أو خطأ لكل فريق ، وما من
فريق واحد معه كل الخطأ أو كل الصواب .

وبينا الأستاذ الكبير ينسى هذه الحقائق التي لا يبطلها
النسيان إذا به يأخذ بالظنون التي لا سند لها ولا ممول عليها
فيما يكتبه عن سعد زغلول فيقول عن علاقة سعد بالجامعة المصرية
« وتبين أن انسحابه من رئاسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال
لكي يحبط المشروع ، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد
انسحابه من اللجنة ، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين
إيعازاً من الاحتلال أيضاً حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت
الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها معارضة بذلك مشروع
الجامعة »

ثم أشار الأستاذ الكبير إلى مسألة التعليم باللغة العربية فقال
« وقد كانت خطبته — أي خطبة سعد — دفاعاً عن سياسة
الاحتلال في التعليم ، لأن الاحتلال هو الذي أحل اللغة الإنجليزية